الزمن النفسي في رواية اللاز للطاهر وطار

أ.منيرة شرقي

جامعة تبسة

ملخص:

الزمن النفسي عنصرا هاما في الرواية، يرتبط كثيرا بعنصر الشخصية، فهي التي تعيشه حين تتأمل الحاضر، أو تتذكر الماضي أو تستشرف المستقبل. يعتمد الزمن النفسي في الرواية على التذكر والسهو والهديان والمونولوج، يصور معاناة الإنسان في العالم، ويعكس أحيانا حالات الفرح والسعادة.

تهدف هذه الدراسة إلى توضيح كيفية حضور الزمن النفسي في رواية (اللاز) للطاهر وطار.

Résumé:

Le temps psychologique est un élément important dans le roman, il a une relation

avec le personnage qui médite le présent, ou rappelle le passé, ou regarde vers l'avenir. Le temps psychologique dans le roman dépend de la mémoire, l'omissions, la rave, et le monologue, il dépeint la souffrance humaine dans le monde, et parfois, il reflète les cas de joie et de bonheur.

Cette étude vise à clarifier comment la présence du temps psychologique dans le roman (Laz) de Tahar wattar.

1- الزمن النفسي والرواية:

قبل توضيح الزمن النفسي في الرواية، يجدر التفريق بين الزمن النفسي والزمن الطبيعي، أو -كما يستعمل البعض- بين الزمن الداخلي الذاتي والزمن الخارجي الموضوعي؛ فالأول يعيشه بمعزل عما هو خارجي، ويحتاج في تقديره إلى خبرتنا، أما الثاني فلا يحتاج لذلك، إذ أنه وقت حقيقي يُحسب بساعة الزمن (1).

تعيش الشخصية في العمل الروائي الزمن النفسي بأبعاده الثلاثة: الماضي والحاضر والمستقبل؛ حيث تتذكر الأول، وتتأمل الثاني، وتستشرف الثالث. والزمن النفسي «لا يوجد إلا في ذات الشخصية التي جردته من موضوعيته

وجعلته حالة نفسية لا شعورية» (2)، فهو نفسي وذاتي، لصنع النفس والذات إياه، وداخلي أيضًا لوجوده داخل النفس البشرية فقط، دون أن يتعداها إلى خارجها.

ويتضح مفهوم الزمن النفسي في الأدب أكثر، بما أورده الطاهر وطار من قول للشيخ الربيعي: «ليس لنا من الماضي إلا المآسي.. وليس لنا من الحاضر إلا الانتظار.. وليس لنا من المستقبل إلا الموت..» (3). فهذه الشخصية غارقة في التفكير، وتعيش زمنًا خاصًا بها، وحدها، من خلال مخاطبة ذاتها، وتذكر الماضي، وتأمل الحاضر، واستشراق المستقبل. وما أثار الربيعي هنا هو ما رأته عيناه وسمعتة أذناه من حديث أشخاص يتباهون بشهادتهم، وينتظرون منحهم حتى تعطى لهم... فدون قصد منه صار غير واع بالزمن الطبيعي ومكتف بزمنه.

ومادام الزمن النفسي مرتبطًا بالشخصية، فإنه يُدرس بطرح تساؤلات تُعنى بها، وأهمها:

- كيف تعيش هذا الزمن؟ ← التذكر، المونولوج، الغفوة، الهذيان...
- كيف هي حالتها وهي تعيش هذا الزمن؟ ← حزينتها، سعيدة، قلقته...
- ما هي علاقتها بهذا الزمن؟ ← ترغب في استمراره، تريد الخلاص منه، تريد تغييره...

- وللاستيضاح أكثر: لماذا تعيش هذا الزمن؟ أو ما هي مناسبة هذا الزمن؟ زيادة على ذلك، أمر مهم جدًا: ما هي مدة وسرعة هذا الزمن؟ ← وتنبني حسب علاقة الشخصية به: طويل يسير ببطء، قصير يسير بسرعة. ف«تدرس السرعة الزمن النفسي Temps Psychologique أي إحساس الإنسان بالزمن. فالساعة الواحدة التي يحددها الاصطلاح بستين دقيقة، والتي لها قياس ثابت في الزمن الطبيعي، يختلف إحساس الناس بها تبعًا للحال التي هم فيها. فالإنسان المنتظر القلق الخائف يحسب الساعة دهرًا، والإنسان اللاهي المستغرق في السلوى أو المتعة يحسب الساعة دقيقة، فلا يشعر بمرور الوقت، لهذا يمكننا أن نقابل رواية الحدث، التي تستخدم الحذف والمخلص والقليل من المشاهد، بالرواية النفسية التي تغلب العرض والتحليل، ويسير فيها الزمن ببطء» (4). مما يعني أن الزمن النفسي يخالف الزمن الطبيعي في السرعة وذلك حسب تقدير الشخصية له، بما يتطابق مع حالتها النفسية. وللزمن النفسي علاقة تناظرية أخرى مع الزمن الطبيعي، كونه الأول لا تعيشه الشخصية ولا تدركه إلا عندما تفقد شعورها بالثاني.

2- ملخص رواية اللاز

اللاز كبة من الخيوط المتشابكة التي يصعب فرزها، أو العثور على واحد منها هو خيط المسار السردى، لأنه اختلط مع خيوط الاسترجاعات المكثفة. ومع الاجتهاد يمكن القول أن أحداث هذه الرواية تجري في إحدى قرى

الجزائر التي يسكنها العديد من الثوار، و"اللاز" واحد من أبطالها، لقيط وطائش وشريير وصاحب طبائع سيئة، حلمه الوحيد هو أن يكون له أب كباقي البشر، وحين تحقق له ذلك، انعطف مسار حياته، وبدأ من جديد فالتحق بصفوف الكفاح، وانشغل بتهريب المجندين الجزائريين في الجيش الفرنسي، إلا أن خائنا وشي به، مما استدعى إلقاء القبض عليه أمام المأم من قبل الجيش الفرنسي، وهناك استغل الفرصة ليومئ إلى قدور بالفرار، فهرب هذا الأخير والتحق بالقائد زيدان ومن معه. لقي اللاز حتفه من التعذيب، إلا أنه فر هو الآخر مع الجنود الجزائريين، والتحقوا هم كذلك بزيدان (أب اللاز). تعرض زيدان لنزاع مع الجبهة بسبب الاختلافات الأيديولوجية، فذبح أمام مرأى اللاز، ثم دخل هذا الأخير في حياة اللاوعي نتيجة الصدمة. وترسل الرواية فروعها على مر الصفحات، وكأنها أخطبوط يمد أطرافه راغبا في إمساك كل شيء، فهي تحاول لم شتات الأحداث من كل جهة والتي تمس شخصياتها، فتسرد ما حدث مع قدور منذ حياده من الثورة إلى غاية استشهاده، ويعطوش منذ أن كان راعيا للعجول، حتى أصبح خائنا ثم فدائيا، وزيدان منذ علاقته بمريم "أم اللاز"، حتى ذهابه إلى باريس وعودته متشعبا بالفكر الشيوعي ومساهمته في الثورة إلى غاية ذبحه... وغير ذلك.

3- الزمن النفسي في رواية اللاز

يعتمد الزمن النفسي في الرواية -غالبا- على التذكر والسهو والهديان والمونولوج، وهذا ما سيتضح هنا.

3-1 - زمن البحث عن الهوية والانتماء

«كان الربيعي مثل كل سكان القرية، يبعض اللاز، ويتمنى من صميم قلبه، أن تلحقه المصيبة القاضية.. يرتكب جريمة لن يخرج بعدها من السجن، أو يقضى عليه، سواء من طرف العسكر، أو من طرف الثورة..» (5) وليس الربيعي هو وحده من يكره اللاز، فهذا الأخير منبوذ اجتماعيا لتصرفاته العدائية والسيئة، حيث كان يسطو وينهب ويضرب ويتعاطى الخمر... وما ذلك إلا سلوك فرضته حالته النفسية المتعبئة، والتي حملت بلا ذنب جرم كونه لقيطاً.

عانى اللاز كثيرا بسبب الماضي الذي ينمي فيه عقدة أمه شيئا فشيئا وتاق إلى الخلاص من ذلك، لكنه لم يجد حلا سوى التمرد والعصيان، وصب الغضب على كل من يصادف طريقه. ومن قراءة الرواية، يبدو أن اللاز يعيش معاناة نفسية وتألما روحيا، ومادام كذلك، فالزمن طويل بالنسبة إليه. رفض اللاز استمرار هذا الوضع، وقرر تغييره، فقال في نفسه: «أريد أن أتخلص من اللاز وولد مريانة(*)» (6).

تصور هذه الحالة النفسية لللاز معاناة الابن اللقيط الذي لا إثم له فيما حدث، هي صعوبة أو استحالة العيش في وسط محكوم بعرف مستمد من

الدين أو غير مستمد منه، المهم هو رفضه للتعامل مع أي لقيط، وعدم تقبله بينهم.

التقى اللاز بأبيه "زيدان"، وشعر بفرحة لا تضاهيها فرحة، فلم يستطع حينها التحكم في مشاعره التي فاضت لحظة الخبر، فارتقى مباشرة على أبيه «وراح يقبله في كامل وجهه. وفجأة تخلص من ذراعيه وراح يقهقه، بينما الدموع تنهمر من عينيه... اللاز عنده أب، ها ها... اللاز، أنا... مريانة أمي كانت تسمى مريم... ها ها...» (7). بمجرد أن علم اللاز أن زيدان البطل الثوري هو أبوه، أخذ يهذي دون وعي منه، وفقد شعوره بالزمن الطبيعي واكتفى بزمنه هو فقط، لأنه فرح وراغب في هذه اللحظة التي أنسته نفسه.

ويجيء الزمن النفسي غالباً فوق وعي وإرادة الشخصية، فيكون لإراديا ولا مفتعلا، وهذا ما حدث هنا مع اللاز، فقد أخذته سعادته المفترطة إلى أن يهذي دون وعي وتدبر منه، كيف لا! وحلمه الذي طالما راوده وتمنى الوصول إليه قد تحقق في هذه اللحظة، وعرف هويته وأصبح موجودا.

وجد اللاز نفسه بعد ضياع طويل، وشعر أنه ولد من جديد، فصار راغبا في الحاضر الذي لم يرغبه يوما، وشاء البدء من هذه اللحظة التي كانت نقطة التحول في حياته، والتي غيرته من حالته الدنيئة إلى حالة سامية ترقى لأن تكون جزائرية بأثر معنى الكلمة، وتسعى للنضال والجهاد بكل تفران وتضحية. والدليل على ذلك انفعاله الشديد لما علم بخيانة بعطوش، حيث غضب وسخط لدرجة أن «هوى عليه برأسه، فطرحه أرضا، والتفت إلى الضابط وزمجر في هستيريا دون أن يغير من وضع يديه: مجاهد، مجاهد. مسبل، مناضل. فلاق، خدعتك أيها المأبون القدر» (8)، فقد اللاز تمالك نفسه، وكشف سرّه بكل جرأة جراء الغيظ من هؤلاء الخونة.

خروج اللاز من محنة تجاوز الماضي، أدخله في محنة أخرى، وهي البحث عن سبل الانتماء لهذا الوطن العزيز، وكيفية الانضمام إلى تركيبه الاجتماعي، لأنه كثيرا ما ألمه كره الناس واحتقارهم له، فحاول كسر هذه المعاناة النفسية عبر الاجتهاد لمحو التصرفات السيئة والانضمام لصفوف الثورة، لكن ذلك كلفه الوقوع في مصيدة الفرنسيين... وهنا تتضح الصلة المتينة بين الزمن النفسي والزمن الطبيعي، فكان الأول سببا في وجود الثاني.

يبدو أن اللاز غير محظوظ، وما يزيده تعاسة وشقاء عدم تقدير الناس لهذه التضحية، فبقى يعاني أسفا على نفسه التي لم تحظ بالتقدير اللازم، يحاور ذاته: «هو أيضا (عن الضابط الفرنسي) لا يراني جادا فيما أقوم به من عمل... كالآخرين، ككل الآخرين، عدا عمي زيدان. أبي زيدان، وعمي حمو... يعتقدون أنه لا دور جادا يمكن أن أؤديه في الحياة... يرونني دودة زائدة، لا عمل لها إلا تنغيص حياتهم» (9). ويبدو اللاز في هذا الزمن النفسي المقدم

بتقنية المونولوج حزينا ومستاء ومشققا جدا على نفسه، وما جعله كذلك هو استخفاف الضابط بعمله الثوري، إذ يرى أن هناك أسماء أخرى وراء هذه الأعمال التي يقوم هو بها. ويظل اللازم يبحث عن الانتماء للجزائر.

قد تخلق الشخصية في الرواية زمتا نفسيا داخليا بغية محو زمن طبيعي خارجي مؤرق، أي أن الزمن النفسي قد يكون مفتعلا وإراديا من أجل تحقيق هدف معين -وقد رأينا قبلا أنه يكون لا إراديا-؛ فاللازم وهو يكابد مخالف الوحش الفرنسي، انتقل إلى نوع آخر من الألم، حيث عاش مرحلة من التعذيب القاسي، والتي ابغى مضيها واضمحلالها، فاقترح على نفسه الانشغال بالماضي والتفكير في أمور طوتها السنين، عسى أن ينجيه ذلك من الآلام، ولم تسترجع ذاكرته إلا الحدث البارز فقط وهو أمر والديه، ثم أن الجلدات الضاربة لم تسمح له بالجولان في هذا الزمن الماضي.

يتضح مما سبق أن الزمن النفسي قد يكون مفتعلا وإراديا للقضاء على زمن طبيعي خارجي، إلا أنه يمكن للزمن النفسي أن يكون أيضا مفتعلا ولكن للقضاء على زمن نفسي آخر؛ فاللازم يسر لنفسه لما كان تحت وطأة الجلد: «هذه العملية الأولى، إن لم أعترف أثناءها، تلتها مباشرة العملية الثانية... الغطس في الماء مع الكهرباء. وإن لم أعترف أثناءها، جاءت العملية الشاقة... اقتلاع الأظافر» (10)، وحاول تجاوز هذه الأفكار العالقة في ذهنه لاسيما فكرة اقتلاع الأظافر، فأجهد نفسه لخلق زمن نفسي مغاير، عسى أن ينجيه من هذا الزمن المضني، جاء في خلدته: «عندما قتل القايد في دوارنا وهرب عمي زيدان... أبي زيدان مع أمي إلى الغابة، أين هربت جدتي؟ وعمي حمو مع من هرب يا ترى؟» (11)، فدوما الحدث البارز نفسه. ولسوء حظه لم تسمح له السياط الموجهة إليه بالانغماس والتوغل في هذا الزمن المفتعل. بقي يتألم، ويحاول مرات أخرى تجاوز محنة التعذيب القاسية، ولم يكن أمامه سوى خلق أزمنة ذاتية نفسية، لأن الصراخ حرص العدو عليه. وهذا ما حقق في الرواية فكرة صراع الأزمنة النفسية مع الأزمنة الطبيعية تارة وصراع الأزمنة النفسية فيما بينها تارة أخرى.

إن مأساة اللازم في صالة التعذيب قصوى، وهي نفسية أكثر منها جسدية لأن مجرد تذكره لمراحل التعذيب يبعث الخوف في نفسه، وتسيطر عليه الحيرة حول حل يكون دون إلحاق الأذى بالثورة. وكلما تطلع إلى المستقبل شعر بنهايته، فنجدته يقول معبرا عن ذلك ومحاورا ذاته: «انتهيت الآن تماما وكل ما تبقى مني أو ما سيتبقى مني، فبفعل المصادفة لا غير... لقد بلغت النهاية، نهاية النهاية» (12). وحالة اللازم النفسية المعذبة والمتألمة في أقصى درجات المعاناة، تُعتبر صورة لكل أولئك الذين مروا على نفس التجربة، فكان الزمن النفسي مرآة عاكسة للوضع في الزمن التاريخي

ومعبرا بدقّة قصوى وصدق كبير عن معاناة جزائري الثورة أمام عنف العدو الفرنسي.

وبعد اليأس الذي أصاب اللاز، تطلع مرة أخرى إلى المستقبل، فإذا بنسمات الأمل تداعب وجهه المتضرر، وتوحي له بالاستبشار خيرا، لأنه قد يحقق ما لم يحققه قبلا، فيقول في سره: «يقينا أنني سأكون لازا جديدا... لا أعرف نفسي، ولا يعرفني أحد حتى القبطان المأبون» (13)، ولكن ذلك صعب التحقيق ومرهون بنجاته من بطش فرنسا. والإكثار من الأزمنة النفسية للاز جعل القارئ يقترب من هذه الشخصية، ويعرفها أكثر، لأنه يعيش معها طموحاتها وأحلامها، ويتقاسم معها أفراحها وأحزانها...

عاش هذا البطل مرحلة التغيير من اللاز بن مريانة إلى اللاز بن مريم بكل صعابها، فالتعذيب يمتحنه إذا ما كان سيرجع إلى اللاز الأول أم لا، فكان ينبه نفسه دوما لقيمة اللاز الجديد حتى لا يقع في الخطأ. فقد أصبح يحب ذاته، ويبني لها طموحا آخر وكبيرا في أن يصير جنديا، يناجي ذاته: «ليتك الآن في الجبل تمسك رشاشا وتنبطح وراء صخرة كبيرة وتضغط بإصبعك لتلهب النار، تحصد أعداءك الذين يحاولون عبثا التقدم من موقعك. تضغط وتضغط، حتى يحمر الرشاش ولا تبالي... وإذا ما جاءت قذيفة مدفع أو طائرة تهوي عليك» (14). وفي حالته المتفائلة هذه، يشاقق إلى والده الذي حرّمه فرنسا منه سابقا، وها هي تعيد حرمانه منه بحجزه فيدفعه الحنين إلى تخيل جنوني، وأنه استشهد أمام والده، وقد افتخر به وهو يقبله قبلته الوداع.

تكثر تأملات اللاز لأنه لم يجد في هذه الثكنة سوى ذاته ليخاطبها فاستغرق معها الوقت الكثير، وبينما هو يفكر طرأ في باله أن يتهم الشامبيط الخائن بتهمة ثلقيه في أشواك التعذيب، فتخيل أنه «سيتعذب سينال قسطا وافرا يعادل ضخامة جسمه... يتذابوب شحمه على هذه المنضدة ويسيل مع المسامير، ممزوجا بالدم الأسود» (15)، وقد تمتع اللاز كثيرا وهو يرسم ذلك المشهد التخيلي، واستطاب له كثيرا منظر الشامبيط مجروحا... وبعد تأمل آخر في أدوات التعذيب، عدل عن الفكرة، لأن المنضدة والسياط والألات... شرف لا يستحقه هؤلاء الأعداء.

وبعد تتبّع أزمنة اللاز النفسية وهو في صالّة التعذيب، اتضح أن حالات شعورية عدة اعترته، ففي الأول كان مستاء ومحتارا وخائفا ومتشائما (يشعر بالموت)، ثم متفانلا (يكون لازا جديدا)، ثم في نشوة من التناول (يمسك الرشاش)، ثم في لحظات الاستمتاع (بمنظر الشامبيط).

تمسك اللاز جدا بوجوده الجديد، فكتم أسرار الثورة، ثم تمكن من تهريب الجزائريين من الثكنة، ورغم هذا الإنجاز البطولي بقي حزينا لأنه لم يتأكد بعد من تغيير نظرة الناس إليه، يقول لنفسه: «لم يتصوروني، ولن

يتصوروني أبداً، واحداً منهم (...). منبوذ من طرفهم. منبوذ، إنني لاز، وليس غير لاز، ولو وجدوا جثتي ملقاة في الشارع، مخربة برصاصات العسكر لتركوها في مكانها تتعفن، بل قد يبصق عليّ الكثيرون» (16). ويبدو أن غايته في الانتماء إلى هذا المجتمع لم تكتمل بعد.

تحقق حلم اللاز الذي راوده في الثكنة، فحمل السلاح. ولما ذبح أبوه أمامه دخل في مرحلة اللاوعي، وعاش زمناً نفسياً مفتوحاً إلى آخر الرواية، لا يعلم أحد متى ينتهي أو يتوقف، ومتى يعود الزمن الطبيعي الفعلي (**). ولم يبق من عقل اللاز سوى جملة يحفظها لكنها تعني كل شيء؛ ما يبقى في الوادي غير حجاره.

إن الزمن النفسي للاز يبدئ منذ أن عاش حالة الضياع والسعي لإثبات الوجود، والبحث عن الذات وسبل العتق من الماضي، وقد فعل ذلك عن طريق التمرد. ولما وجد أباه، ولد من جديد، فأحب حاضره ورغب في التمسك به وحب هذا الحاضر أثمر رغبة في تحقيق الانتماء إلى الجزائر، فانضم إلى الصوف بإخلاص.

3-2- زمن السعي إلى الخلاص من الحاضر

بعطوش راعي العجول، وصاحب الطموحات التي لم يجد سوى فرنسا محققة له إياها، فانصاع لأوامرها وصار حليفاً لها، لكنها بدورها استغلت ضعف شخصيته ورغباته الجامحة في الارتقاء، فجعلته "سارجان" مقابل قتله "أم اللاز" واغتصابه خالته "حيزية". بعد هذه الجريمة الشنعاء، دخل بعطوش في أزمة نفسية، و«صورة خالته عارية بين أحضانه، ما تنفك تبدو أمام ناظره» (17)، عاش حالة انهيار عصبي ومرحلة لاوعي، وحاول تحاشي ما حدث ورميه في خانة النسيان، إلا أنه عجز عن ذلك، فعانى عذاباً روحياً ممتزجاً مرة بتأنيب الضمير ومرة أخرى برغبة ساحقة في الموت أو الانتحار حتى سيطر عليه اليأس من الحياة، وهناك كره نفسه أشد الكره.

تخبو حالة التوتر هذه، لتأتي مرحلة الهدوء التي تشبه الغيبوبة، وقد أدخلت بعطوش في سكوت وتأمل في المحيط، وجعلته غير آبه بما يدور من حوله. وكثيراً ما يوظف الكاتب عبارات توحى بحال الشخصية وهي تعيش زمنها الخاص: «إن ضباباً كثيفاً في لون دخان التبغ يلغظه... عيناه لا تريان سوى الضباب... قدماه لا تطآن غير الضباب... صدره لا يتنفس غير الضباب...» (18). ويحيل الضباب إلى سوء حال بعطوش، وتوهه عما يجري ويحدث، وقد صار يتمنى الخراب لكل شيء؛ تذوب الجدران، تنشق الأرض وتبتلع الضابط وعسكره، ويصاب هو بالموت؛ «لو كانت القنابل اليدوية في حجر أقرص دواء الصداق لكان في استطاعة المرء أن يبتلع واحدة أو اثنتين منها، وينتظر انفجارها في صدره. بر... بر...» (19).

لكن هذا الهدوء هو الذي يسبق العاصفة، لأن يعطوش تخلص من أزمته النفسية، وذلك حين قتل الضابط، وألهب الثكنة وأخرج المسجونين مع الأسلحة، وبذلك استطاع أن يشعر براحة في ضميره. وهنا حقق الزمن الطبيعي تخلصا من الزمن النفسي.

3-3- زمن الانشطار وأزمتي الخوف والفراق

قدور بطل ثوري، سببت له الثورة عدة مشاكل نفسية، ففي أول الأمر كان يعيش موقفا محايدا منها، إلا أنه بدأ يقتنع على يد صديقه بأن الحياض لا جدوى منه وأنه في نفس الوقت تحيز للعدو، أدخله ذلك في تشتت وانشطار بين طرفين، وعاش مرحلة يستقصي فيها نفسه ويشاورها في اتخاذ القرار، فإما المستعمر أو الثورة. وكثيرا ما تراءت له صورة البئر، وأنه يغوص في أعماقه وأنه كان «ينادي بالإنقاذ، ويمتد له حبلان، واحد أبيض يمثل يد ريمون أوجان جون أو الحاج الطاهر... وآخر أسود يمثل يد اللاز أو يد حمو أو يد زيدان» (20)، وقد احتار بأيهما يتعلق، لأن الأول يبعث إلى الذبح من قبل الثوار، والثاني يبعث إلى الرصاص من قبل العدو. ثم خيل له أن «يتعلق بالحبلين معا... الأبيض والأسود... لكنه يظل كما كان، لا يتحرك وينادي بالإنقاذ، وكلما جذب الحبلين انجذبا واستقرا تحت قدميه كورا كورا...» (21). ولما صحا قدور من سهوه، وتملص من زمنه النفسي الخاص، وجد ضغطا من قبل حمو الجالس بجانبه، والذي أخذ يستفهم عن أي صف سينظم إليه، أو أي حبل سيمسك... إلا أن قدورا لم يجب، وشرذ مرة أخرى بسبب توتره وحيرته: «ينادي بالإنقاذ، ويمسك بالحبلين، ويتكوران عند قدميه، ويختار بأيهما يحتفظ وأيهما يختار... الذبح من جهة والرصاص من جهة. ومع ذلك يجب أن يخرج من هذه البئر» (22). تعكس فترات السهو هذه قلق قدور، وحدة توتره التي تزداد لما يمارس صديقه حمو إلزاما عليه.

فبسبب الضغط الممارس عليه، دخل قدور في حالات تشبه الغضوات المتقطعة باليقظات، تدل في مجملها على القلق والانشطار اللذين تعيشهما هذه الشخصية. ولا يرغب قدور في استمرار هذا الزمن، بل يرغب في الخلاص منه، مما يجعل التقدير لهذا الزمن بأنه طويل لكره الشخصية له، ولا أدل على طولته -حتى وإن كان متقطعا- من قول السارد: «وتتالي الغضوات والاستيقاظات» (23).

وبعد تفكير وتمخض داخلي، توصل قدور إلى قرار، هو الانضمام إلى الثورة، لأن خروج فرنسا يعني تحقيقه المراد؛ زواجه بزينة وشراء الحمام. وبالتالي تخلص مما عاشه من زمن الحيرة والانشطار.

ناضل قدور ليحقق الغاية المنشودة، ويوم إلقاء القبض على اللاز، أصابته نوبة من الوجع والذعر، وانشغل باله كثيرا -وهو قاصد البيت- في الوقت الذي سيكفيه لترك القرية، وفي ضرورة إخفاء الأمر، وفي شأن اللاز إن كان

قد أفشى أسماء الثوار أمر لا... أمور كثيرة تهاطلت على مخيلته في لحظة زمنية ضئيلة. وأجاد السارد حين دل على الزمن النفسي الذي عاشه قدور الخائف من خلال تقديم وصف له: تهتز أعصابه، تنقلص عضلاته، تضطرب خطاه، تتقاذف قدماه، يقشعر بدنه، يبلع ريقه...

إن قدورا يعاني نتيجة الحاضر، ويبحث عن خلاص لمعضلته، وما يزيد توتره هو البحث عما سيخبر به أمه عن علته مغادرته القرية، فتغشاه طبقة من الحيرة والذهول... بهذه المرحلة يعيش خوفا من المستقبل المجهول الذي يفترق أمامه راغبا في التهامه، وهنا فقط، يتذوق مرارة المستعمر المنغص للحياة، فبسببه يترك القرية، وأمّه، وحبيبته "زينت" التي يدعها دون تفسير يبرر غيابها، وقد عانى كثيرا قسوة فراق كل ذلك.

ومما يتميز به الزمن النفسي، أنه يخالف الزمن الطبيعي الخارجي؛ فقد تعيش الشخصية زمنا نفسيا قصيرا، إلا أنه في الواقع أطول من ذلك بكثير والسبب هو عامل نفسي يُشعر بقصر الوقت. كما يمكن أن يحدث العكس مثلما كان مع قدور هنا في اللاز، ففي قرابة الصفحتين، فقد شعره بالزمن الطبيعي، وسمح لخياله بأن يسرح في عوالم وهمية، لكنها كانت حقيقة في يوم ما، «استعرض أسماء كثيرة وجوها عديدة ممن جندهم بنفسه، أو التحقوا بالجبل قبل انخراطه، على يد حمو» (24). وما يدل على أن هذا الزمن النفسي الطويل قصير في حقيقته (في الطبيعة)، هو قول السارد: «خطر لقدور، وعجب كيف تذكر بسرعة فائقة أشخاصا كانوا بعيدين عنه كل البعد، لم تكن تربطه بهم أية علاقة» (25)، وقال "سرعة فائقة" دلالة على قصر الزمن في الحقيقة والذي استغرق فيه كل ذلك. وما يدل على قصر هذا الزمن الطبيعي أيضا هو وقوعه في الفترة التي تبدأ بعد فتح الباب (باب الكوخ الذي ينوي قدور دخوله) وقبيل الدخول، وإن قدرنا مدة هذه الفترة، فهي ثوان معدودة.

إن الزمن النفسي الذي عاشه قدور هنا قدام باب الكوخ، يوضح فكرة أشارت إليها سيزا قاسم، وهي أن الذاكرة تلعب دورا هاما في استرجاع الماضي وربطه بحياة الشخصية النفسية، وعرضها من خلال منظور الشخصية، لا من خلال منظور الراوي (26). فيصبح الزمن النفسي معرفا بالشخصية وكاسرا لسلطة الراوي التقليديّة، كما يقرب صورا واقعية إلى ذهن القارئ.

3-4- زمن الانشطار وهم النصر

زيدان هو الآخر عانى حالة تشبه حالة قدور، وهي الانشطار بين أمرين يصعب الاختيار بينهما؛ هما إخبار أو عدم إخبار اللاز بأبوتة له. ولما التقاه وفي بضع ثوان لاحت في باله عدة خواطر، ما يدل عليه هذا المقتطف الذي يبتدئه اللاز:

«أتعطف علينا يا عم زيدان.

هل أصرحه بالحقيقة الكبرى؟ يقين أنه حان أوان مصارحته... ألا تكون أمه قد سبقتنني. لا. لا أعتقد ذلك، فهو خالي الذهن على ما يبدو. آه. كيف أبادره؟ كيف أبرر صمت كل السنين الطوال؟ هل يفهم؟ هل يعذرني؟ قبل أن أودعه، الوداع الذي قد يكون الأخير، لا بد أن أعلمه. نعم لا بد من ذلك. لقد حان أن يسترد اعتباره. نعم حان. رغم أنه فعله قبل اليوم، يوم قرر قتل القبطان.

ودون أن يدري، وجد نفسه يتمم:

- نعم. نعم. كثيرا جدا يا ولدي العزيز» (27).

وبما أن الزمن النفسي زمن نسبي داخلي يقدر بقيم متغيرة باستمرار بعكس الزمن الخارجي الذي يقاس بمعايير ثابتة، ليس من الضروري أن تمثل ساعة واحدة قدرا مساويا من النشاط الواعي كساعة أخرى (28)، والقارئ يمتلك حسا في تقدير مدة الزمن، فإنه يمكن القول أن هذه الشخصية قد عاشت زمنا ذاتيا طويلا مقارنة بالبرهة القليلة من الزمن الطبيعي، هي لحظة أو هنيهة في التأمل. ومعاناة زيدان باديّة من خلال هذا المونولوج المقتطع للحوار، وهي تشير إلى أزمنة نفسية سابقة، تشترك كلها في حيرة صاحبها حول الموضوع منذ سنين مضت. وقد عاش زيدان كل هذه الأزمنة النفسية التي تم تقديرها بالكثيرة، لإدراكه بأهمية الأمر وضرورة الكشف عنه ويرجع ذلك لطبعه وصفاته، ولو لم يكن كذلك لما تذكر أبدا أن له ابنا، فكيف بالتفكير في ضرورة إعلامه! فلكل زمن نفسي دوافعه وأسبابه. يمكن للإنسان أن يجبر على عيش زمن نفسي تفرضه عليه أوضاع معينة؛ كان هذا هو حال زيدان - الشخصية التخيلية - في اللاز، ولما كان النصر همه والثورة شغله «شعر بالإشفاق على قدور (لما رآه يتبرع بماله)، فأضاف في نفسه، الثورة تحول الإنسان، ومادامت عميقة، فإن التحول يحدث بسرعة. يجب أن يتحول قدور إلى مناضل ثوري، متطهر من العقد والرواسب...» (29). وتشير عبارة "أضاف في نفسه" على عيشه زمنا نفسيا.

وليس ذلك فقط، فقد طوت هموم الثورة فراش زيدان، وجعلته ينشغل بها؛ فبسبب تغيبه الطارئ، احتار في اختيار من سيخلفه، فاستقطع جزءا من الزمن الطبيعي، وحوله إلى زمن نفسي بغية محاورة نفسه فيه، واستشارتها حول الفرد الموثوق به لأداء هذه المهمة الصعبة. وكان هذا الزمن النفسي بطيئا وعسيرا على زيدان نظرا لقيمة الموضوع، حيث عاشه قلعا، إلا أنه نال ما أراد وتوصل إلى قراره.

إن الزمن النفسي الذي عاشته الشخصية ارتبط ارتباطا وثيقا بالمشاكل الاجتماعية والأوضاع الاقتصادية والسياسية للبلاد، مما طرح أفكارا وقيما متعددة الميادين؛ ومن أمثلتها، ما فعله قائد الوحدة الثانية من ذبح سبعة أشخاص في ليلة واحدة، فذلك جعل زيدان يشرد عما يحيط به، و«خطر

له... لو كنت مكانه، لكنت الآن مغموما... سيع أنفس بشرية كاملة، ولا يتأثر (...). حين يدرك هذا الشاب معنى ذبح سبعة آدميين في ليلة واحدة، بيد واحدة، ينفجر هذا الرأس المستطيل الذي بين كتفيه... ولو كانوا خونة، ولو كانوا أعدى أعداء الوطن» (30). وزيدان شخصية تحب كثيرا الانعزال ومحاورة الذات، وفي كل مرة يفعل ذلك يخرج بنتيجة أو قرار، وهنا توصل إلى ضرورة مراقبة هذا القائد وتوصيته بعدم احتكار العملية، وإنما إشراك الجميع فيها.

الخاتمة

هناك نتائج متوصل لها، نختصرها فيما يأتي:

- يحضر الزمن النفسي في الرواية من خلال تقنيات أهمها التذكر والسهو والهديان والمونولوج.
- يكون الزمن النفسي لا إراديا، إلا أنه قد يأتي أيضا إراديا مفتعلا من قبل الشخصية.
- يُدرس الزمن النفسي بطرح تساؤلات تُعنى بالشخصية، كما أنه يدرس وفق علاقته بالزمن الطبيعي.
- قد تتصارع الأزمنة النفسية مع الأزمنة الطبيعية، كما قد تتصارع الأزمنة النفسية فيما بينها.
- قد يحقق الزمن الطبيعي تخلصا من الزمن النفسي، أو العكس.
- هناك علاقة تنافر وتجادب بين الزمن النفسي والزمن الطبيعي؛ الأولى تتمثل في أن الزمن النفسي لا يتحقق إلا بغياب الزمن الخارجي بطبيعته الفلكية، أي عندما تفقد الشخصية شعورها بالزمن الحقيقي وتعيش زمنها الخاص، والعكس كذلك، بمعنى يتحقق أحدهما بغياب الآخر. أما الثانية فتتمثل في أن تأثر الشخصية بما يحدث من حولها يحملها إلى التذكر أو التخيل أو التفكير... كما أن زمنها النفسي قد يجبرها على التخلي عنه، وبالتالي تستعين بالزمن الخارجي لفعل ذلك.
- يسهم الزمن النفسي في تقريب الشخصية من القارئ، فتكون معروفة لديه، بعد أن يعيش معها طموحاتها وأحلامها، ويتقاسم معها أفرحها وأحزانها...

هوامش

- 1- سيزا أحمد قاسم: بناء الرواية، دراسة مقارنة ثلاثية نجيب محفوظ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1984، ص: 45.
- 2- الشريف حبيلة: بنية الخطاب الروائي، دراسة في روايات نجيب الكيلاني، عالم الكتب الحديث، إربد - الأردن، 2010، ص: 80.

- 3- الطاهر وطار: اللاز، موفه للنشر، الجزائر، 2007، ص: 08.
- 4- لطيف زيتوني: معجم مصطلحات نقد الرواية - عربي، إنكليزي، فرنسي-، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت- لبنان، 2002، ص: 109.
- 5- اللاز، ص: 09.
- * "مريانت" اسم نُسب إلى "مريم" أم اللاز احتقارا لها واستصغارا لشأنها.
- 6- اللاز، ص: 53.
- 7- نفسه، ص: 55.
- 8- نفسه، ص: 63.
- 9- نفسه، ص: 62.
- 10- نفسه، ص: 64.
- 11- نفسه، ص: 65.
- 12- نفسه، ص: 75.
- 13- نفسه، ص: 75.
- 14- نفسه، ص: 78.
- 15- نفسه، ص: 76.
- 16- نفسه، ص: 100.
- ** إلا أن قارئ اللاز الثنائيّة "العشق والموت في الزمن الحراشي" يدرك أن هذا الزمن النصفي ينتهي لما يوشك التيار الإسلامي على تشويه وجه تيار الاشتراكيّة، فيتفطن اللاز، ليكون رمزا لتفطن كل الجزائريين من أجل تعليق وسام الاشتراكيّة على رداء النظام الجزائري.
- 17- اللاز، ص: 150.
- 18- نفسه، ص: 152.
- 19- نفسه، ص: 189.
- 20- نفسه، ص: 39.
- 21- نفسه، ص: 39.
- 22- نفسه، ص: 39.
- 23- نفسه، ص: 40.
- 24- نفسه، ص: 46.
- 25- نفسه، ص: 47.
- 26- سيزا أحمد قاسم: مرجع سابق، ص: 34.
- 27- اللاز، ص: 54.
- 28- أ. أ. مندلاو: الزمن والرواية، ترجمة: بكر عباس، دار صادر، بيروت، 1997، ص: 137، 138.
- 29- اللاز، ص: 49.
- 30- نفسه، ص: 131.